اختلاس

دخلت ذرات الهواء إلى صدره.. رشيقة.. حرَّة.. نقيَّة من أي عفن أو رطوبة، تحمل صفاء السماء وخفة الغيوم، كان نور الشمس حاداً يخترق ضبابية رؤيته، كأنه سهام تُرشق في بؤبؤ عينيه، نصب كفه على جبهته ليستظلَّ ويبصر طريقه.

كأنَّ أسعد يمشي لأول مرة، كأن أمه ترسله الآن، وهو ابن أربع سنوات، ليشتري لها خمس بيضات من البقال أبي بكري، يومها.. تعثَّرت قدمه وتكسَّر البيض وضربته أمه على يديه، قالت له : يجب أن تصبح رجلاً.

بدأت ذاكرة أسعد من ذلك اليوم وإلى الآن ما زالت خطاه تتعثر وقد حرَّم على نفسه شراء البيض، خشية أن يتكسَّر وتقوم أمه من قبرها لتضربه على يديه، تريده أن يصبح رجلاً، " لكن الرجل لا يعثر يا أمي.. وأنا تعثرت كثيراً في حياتي، وأكبر عثرة في حياتي هي دخولي إلى ذاك السجن بغير ذنب..! ليت العثرة توقفت عند كسر البيض يا أمي...!".

كان يمشي على غير هدى، لا يدرك أين مساره، خمس سنوات من الغياب ليست بقليلة على قدمين حاكتا المدينة غدوًّا ورواحاً كل يوم لقضاء حاجات السيد فؤاد، قدماه تقودانه إلى قلب المدينة وكأنه يتبع حدسه الداخلي، المدينة تعجُّ بالحياة وكأنها لم تفتقد وجوده، هي أصلاً لم تنتظر رجوعه، انقبض صدره.. كم كنت يا أسعد مغروراً حين ظننت أن الحياة ستقف حيث وقفت، هل ظننت أن الناس ستفتقدك ؟ هل تصوَّرت أن أحدهم سيسأل عنك إن غبت، أو يخشى على مشاعرك إن جرحت، أو يسعى لإرضائك إن حزنت ؟ هل تتخيل أن السيد فؤاد قد قُضَّ مضجعه طوال السنوات الخمس فما عاد يعرف النوم لأنه ظلمك..؟ أو أوجعه قلبه لأنه أخطأ في حقك.. أو أهانك..؟ هاهي ذي الحياة تمضي بك وبسواك، أحدهم لا ينتظر خطاك، بل إن الركب ماض في سباق تعتريه الانتهاكات والتجاوزات، الكل يجري.. لكن إلى أين..؟

كم أنت مغرور وأحمق حين ظننت أن الحياة ستُسجن بسجنك، وأن الحسناء ذات الجديلة الشقراء ستظلُّ قابعة بلا عريس تنتظر رائحة طيفك، ها قد أُزيلت صورتها من شركة مساحيق التجميل ووضعوا غيرها كثيرات، ملؤوا بهن الشوارع والساحات، لكن.. تساءل أسعد.. لمَ ما عدت أراهنّ بذات الفتنة

والجاذبية..؟ تنهَّد عميقاً.. يبدو أنَّ السجن قد حبس أيضاً رفرفة قلبي، آه.. كم أحنُّ إليك يا زوجتي، تركتك في ريعان صباك مع أطفال ثلاثة، يومها قال لي السيد فؤاد :

- والله لن ينقصهم شيء، أنت خلّصني من هذه الورطة وسأقبر فقرك إلى سابع أرض، أنا لي اسمي وسمعتي في السوق.

طوال تلك المدة كانت تؤكد لي زوجتي أنه لم يقصّر معهم أبداً، وأنها إذا طلبت من الشيء صاعاً أحضر عشرة.. لا أدري لمَ راحت تقلّ زياراتها بالتدريج..؟ لي ثلاثة شهور لم أرها فيها. هل يعقل أنها سئمت التردد إلى السجون..؟ معها حق.. لها خمس سنوات وهي تغدو وتروح وهي امرأة شابة وجميلة، أنا نفسي لا أريدها أن تكثر الزيارات، وإن كنت أشتاق إليها، وإن كان كل ما فعلته هو من أجلها ومن أجل أولادنا، في الآونة الأخيرة قبل سجني كانت تذمّراتها تتصعّد، وطلباتها تتسع، وهي تعلم قلّة حيلتي، تحمّلت السجن لأرضيها وأرضي أولادنا.. مع ذلك كانت تعابير وجهها في زياراتها تنمّ على أسى عميق، فقد وضعتها في موقف محرج أمام المجتمع، هي التي في فوهة المدفع وأنا مستتر وراء القضبان، هي التي تحاول تلفيق القصص لتستر سرقة ما فعلتها.

كان أسعد يقترب رويداً رويداً من منطقته.. حارته.. وقلبه ينبض في تجدّد.. لم يخطر بباله أن يعدّ الساعات التي أمضاها حتى وصل.. فهو ما زال لا يحسب للوقت معنى. ولم يخطر له أن يعد الأميال التي قطعها على قدميه حتى وصل، فقدماه في شوق خيالي للتعب..!! لم يكن تعبه بقدر رزقه، والكل كان يلومه على بساطة فكره، يقولون له: يجب أن تتحرك، عليك أن تكون مرناً أكثر من ذلك ولا تبقى على نمط واحد من الحركة.. ها قد أجرى نقلة نوعية في حياته، ولا يدري بعد ردود أفعال الآخرين حولها.. دمعت عينا أسعد..

والله كانت حياتي مع فقرها أبسط وأسلس، نخر الدائنون عظمي.. لم يمهلوني، استغلَّ السيد فؤاد تكالبهم عليَّ، كان يتعمَّد أن يكلِّفني بعدِّ الرزم النقدية المتراكمة كالتلِّ على طاولته، يأخذني معه إلى المصرف فقط لأنزع عن الرزم المطاطات البلاستيكية، وأمضي في هذا العمل المتواضع ربع ساعة أو أكثر وأنا أحاول التخلَّص بأكبر سرعة ممكنة من هذا المنظر الاستفزازي، نعم كانت طريقته استفزازية تمرُّدية من الأعماق، النار كانت تأكل أحشائي، رزمة واحدة من هذا الجبل تسدُّ فم الدائنين، وتكبح جماح إيجار المنزل، وتسكت جوع أولادي، والمستقبل.. المستقبل كان يخنقني، أولادي سيكبرون.. ويعانون مثلما أعاني

وربما أكثر، ويقولون.. رحم الله أبانا.. لم يورث لنا درهماً ولا ديناراً.

توقَّف هنيهة.. رفع بصره إلى السماء، وضع يده على الجدار مستنداً، لم يتمنَّ في حياته كما تمنَّى في هذه اللحظة، تمنَّى من أعماقه لو يعيد الزمن إلى الوراء، لو يرفض عرض السيد فؤاد الإجرامي، لو يملك الجرأة على ترك العمل عنده والبحث عن عمل آخر، ليته ما جنى على أولاده، ألصق بهم عاراً غرَّر به الشيطان يومها أن الزمن سيغيِّبه.

صراخ الصبية وهم يلعبون في الحارة أيقظه من أمنيته، تأمَّل حارته الضيِّقة الطويلة، تأمَّل صبية يُفترض أنهم من عمر أولاده، تساءل بحرقة.. هل تُراني سأقدر على تعويضهم عن السنوات التي كبروا فيها بعيداً عني..؟ هل المال الذي وضعه السيد فؤاد في عهدة زوجتي والذي هو ثمن سمعتي وحريتي.. هل سيكفينا لاستثماره في عمل حر..؟

كانت الأفكار تتقاذفه، والأشواق قد بدأت تطيح برأسه، ملهوف ليرى زوجته وأولاده.. فيحتضنهم شهراً وقد غابت قيمة الوقت عن خاطره لكن ثمة شعور بالخوف يتسلل إلى أعماقه.. لا يدري ممّ.. لعلّه التردد.. لعلّه المفاجأة.. من بين أرطال الهموم شقّ ثغره شعاع ابتسامة.. لا بد أني سأفاجئهم.. سيطيرون

من الفرحة، هم لم يعلموا بعد بقرار العفو الذي صدر أمس.

اقتربت كرة عند قدميه، هرول ولد والتقطها بسرعة.. رفع الولد رأسه إلى أسعد وراح يتأمّله باستغراب، كان في الثانية عشرة تقريباً من عمره.. حدّق في وجهه طويلاً، ضاع أسعد بين رمقاته.. هل عرفه..؟

أم يشبّه به..؟ ماذا يفعل..؟ هل يتركه حتى يجد ضالّته فيه..؟ أم يمضي سريعاً إلى بيته..؟

قاطع حيرته وهو يقول بعجب: ألست العم أسعد..؟

صمت أسعد والهمّ منطوق في كل جارحة من جوارحه.. تابع الولد كلماته الصياحية.. أنا إبراهيم صديق ولدك أحمد..

هزّ رأسه أسعد واكتفى بالصمت يريد المسير..

قاطعه الولد إبراهيم قائلاً : إلى أين يا عمّ..؟ لقد رحلوا من الحارة..!

التفت إليه بوجوم.. خرج صوته الدفين منذ سنوات.. منذ سنوات لم يحادث أحداً خارج السجن.. منذ سنوات لم يكلّمه أحد بعيداً عن جدرانه.. بعيداً عن رائحته..

كان صوته معطوباً.. عليه صدأ.. سأل الولد: إلى أين..؟

أجابه الولد وكأنه يحكي قصةً تركية لا تعني أسعد بشيء..

لا أدري يا عم، ولكن اطمئن.. هم بخير، يعيشون عيشة خمس نجوم، الرجل الثري الذي كان يحمّل لهم كل يوم ما لذّ وطاب من الأطعمة تكفّل بهم..

سمعت أنه ليس عنده أولاد..!.. أخذهم لعنده.. وسمعت أنهم قالوا أيضاً.. من أجل الحلال والحرام.. فقد تزوّج حرمك..!!.. إنهم بخير..!!